شرف الموسيقى

كل شيء يشرف ويتضع بشرف القائمين به وصاحبه، وكل علم يشرف ويتضع على نسبة اعتبارية من فائدة تتوقع منه وغاية تكون وراءه، وصناعة الموسيقى هي من إمارات الظرف تعدّ عند الامم الحديثة المتحضرة من الفنون الجميلة كما كان يعدها العرب إبان حضارتهم من الكماليات.

قال ابن خلدون والغناء يحدث في العمران اذا توفر وتجاوز حد الضروري الى الحاجي ثم الى الكمالي وتفننوا فتحدث هذه الصناعة لانه لا يستدعيها الا من فرغ من جميع حاجياته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره فلا يطلبها الا الفارغون عن سائر احوالهم تفننا في مذاهب الملذوذات وكان في سلطان العجم قبل الملة منها بحر زاخر في امصارهم ومدنهم وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به حتى لقد كان لملوك الفرس اهتمام باهل هذه الصناعة ولهم مكان في دولتهم وكانوا يحضرون مشاهدهم ومجامعهم ويغنون فيها.

قال واما العرب فكان لهم اولاً فن الشعر يؤلفون فيه الكلام اجزاء متساوية لم يزل هذا شأنهم في بداوتهم وجاهليتهم فلما جاء الاسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التي عرفت لهم مع غضارة الدين وشدته في ترك احوال الفراغ وما ليس بنافع في دين ولا معاش فهجروا ذلك كثيراً ما ولم يكن الملذوذ عندهم الا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذي هو ديدنهم ومذهبهم فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الامم صاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا الى الحجاز وصاروا موالي للعرب وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم الاصوات فلحنوا عليها اشعارهم وظهر بالمدينة نشيط الفارسي وطويس وسائب خاثر مولى عبد الله بن جعفر فسمعوا شعر العرب ولحنوه وجادوا فيه وطار لهم ذكر ثم اخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج وانظاره وما زالت صناعة الغناء تتدرج الى ان كملت ايام بني العباس عند ابراهيم بن المهدي وابراهيم وابنه اسحق وابنه حماد.

قال وكثر ذلك ببغداد وامصار العراق وانتشر منها الى غيرها وكان للموصليين

غلام اسمه زرياب اخذ عنهم الغناء فاجاد فصرفوه الى المغرب غيرة منه فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل امير الاندلس فبالغ في تكرمته وركب للقائه واسنى له الجوائز والاقطاعات والجرايات واحله من دولته وندمائه بمكان فاورث بالاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الى ازمان الطوائف . وطما منها باشبيلية بحر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها الى بلاد العدوة بافريقية والمغرب وانقسم على امصارها وبها الآن منها صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها . وهذه الصناعة آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لانها كمالية في غير وظيفة من الوظائف الا وظيفة الفراغ والفرح وهي ايضاً اول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه .

وقال ابن خلدون ايضاً : ولقد عذلت يوماً بعض الامراء من ابناء الملوك في كلفه بتعلم الغناء وولوعه بالاوتار وقلت له ليس هذا من شأنك ولا يليق بمنصبك فقال لي افلا ترى الى ابراهيم بن المهدي كيف كان امام هذه الصناعة ورئيس المغنين في زمانه فقلت له يا سبحان الله وهلا تأسيت بابيه واخيه او ما رأيت كيف قعد ذلك بابراهيم عن مناصبهم فصم عن عذلي واعرض .

هذه زبدة تاريخ الغناء او الموسيقى في العرب وطرف مما كان من عناية ملوك الاسلام بها ايام الحضارة ولقد انتشرت بعد حتى صار يتعلمها بعض اهل العلم من غير نكير وشرفت باقبال الكبراء عليها بحيث لم تكن في شرفها دون غيرها من العلوم .

فقد ذكر ابن ابي اصيبعة ان الفارابي المعلم الثاني وصل في علم صناعة الموسيقى وعملها الى غاياتها واتقنها اتقاناً لا مزيد عليه ويذكر انه صنع آلة غريبة يسمع منها الحاناً بديعة يحرك بها الانفعالات وله كتاب الموسيقى الكبير الفه للوزير ابي جعفر محمد بن القاسم الكرخي وكتاب في احصاء الايقاع وكلام له في النقلة مضافاً الى الايقاع كلام في الموسيقى .

ويحكى ان القانون الذي يضرب عليه المطرب هو من وضعه وانه كان اول من ركب هذه الآلة تركيبها المعهود اليوم .

والف يعقوب بن اسحق الكندي فيلسوف العرب في الموسيقى فكتب رسالة في ترتيب النغم الدالة على طبائع الاشخاص العالية وتشابه التأليف ورسالة في المدخل الى صناعة الموسيقى ورسالة في الايقاع ورسالة في الاخبار عن صناعة الموسيقى ومختصر الموسيقى في تأليف النغم وصنعة العود الفه لاحمد بن المعتصم ورسالة في اجزاء

معرفة الموسيقى . والف احمد بن الطيب السرخسي العالم الحكيم كتاب الموسيقى الكبير ولم يعمل مثله كما الف كتاب رهبة النفوس ولم يخرج اسمه وكتاب اللهو والملاهي ونزهة المفكر الساهي في الغناء والمغنين والمنادمة والمجالسة وانواع الاخبار والملح صنفه للخليفة .

والف ثابت بن قرة كتاباً في الموسيقى ورسالة الى علي بن يحيى المنجم فيما امر باملائه من ابواب في الموسيقى . ورسالة الى بعض اخوانه في جواب ما سأله عنه من العود والموسيقى . وكان ابو بكر محمد بن شبل من الاساطين في الاندلس يأخذ روايات كثيرة مع الاطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والاجناد وغيرهم ويقول لو حقق عليهم علم الموسيقى لألفيته عندهم .

وكان ابن باجة الفيلسوف الاندلسي على جلالة قدره متقناً لصناعة الموسيقى جيد اللعب بالعود قال ابن سعيد ان ابن باجة في الموسيقى بالمغرب بمنزلة ابي نصر الفارابي بالمشرق واليه تنسب الالحان المطربة بالاندلس التي عليها الاعتماد . وكان ابن يونس الحكيم المشهور يضرب بالعود على جهة التأدب . وكان ابو المجد بن ابي الحكم من الحكماء المشهورين يعرف الموسيقى ويلعب بالعود ويجيد الغناء والايقاع والزمر وسائر الآلات وعمل ارغناً وبالغ في اتقانه . وكان ابو زكريا يحيى البياسي من الافاضل النبلاء جيد اللعب بالعود وعمل الارغن ايضاً وحاول اللعب به . وكان يقرأ عليه علم الموسيقى . وكان ابو الصلت امية بن عبد العزيز الاندلسي العالم الرياضي الطبيب متقناً لعلم الموسيقى وعمله جيد اللعب بالعود . وكان ابو الحكم الاندلسي الطبيب الشاعر يعرف الموسيقى ويلعب بالعود . وكان الحرث بن كلدة الثقفي احد اطباء العرب يضرب بالعود تعلم ذلك بفارس واليمن . وكان قسطا بن لوقا البعلبكي العالم الفيلسوف بارعاً في علم الموسيقى . وكان ابن [illegible] يحب صناعة الموسيقى وله ميل الى اهلها . وكان صفي الدين عبد المؤمن بن الفاخر العالم المتقن عالماً بالموسيقى .

وكان نجم الدين بن المنفاخ المعروف بابن العالمة لان امه كانت عالمة بدمشق وتعرف بست دهن اللوز فاضلاً في الادب والطب وله معرفة بالضرب بالعود استوزره الملك مسعود صاحب آمد وحظي عنده . وكان فخر الدين بن الساعاتي الفلكي الفيلسوف الطبيب خدم بني ايوب ووزر للملك العادل والملك المعظم وكان ينادم ايضاً ويلعب بالعود . وكان رشيد الدين بن خليفة الطبيب العالم اعرف اهل

زمانه بالموسيقى والعب بالعود واطيبهم صوتاً ونغمة حتى انه شوهد من تأثر الانفس عند سماعه مثل ما يحكى عن ابي نصر الفارابي فكثر اعجاب الملك المعظم به جداً وبعد ذلك اتخذه اليه واستمر في خدمته .

وذكر ابن خلكان ان ابا بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب المشهور كان في شبيبته يضرب العود ويغني فلما التحى وجهه قال كل غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يستطرف فنزع عن ذلك واقبل على دراسة كتب الطب والفلسفة .

وكان ابو الحسين علي بن الحمارة آخر فلاسفة الاندلس آخر متبرع في الالحان وعلمها وهو من اهل غرناطة قال في نفح الطيب واشتهر عنه انه كان يعمد الى الشعراء فيقطع العود بيده ثم يصنع منه عوداً للغناء وينظم الشعر ويلحنه ويغني به فيطرب سامعيه . وكان الفاضل ابو الحسين بن الوزير ابي جعفر الوقشي آية في الظرف والموسيقى والتهذيب وشيخه في هذا الفن ابو الحسين بن الحسن بن الحاسب كان ذا ذوق فيها مع صوت بديع اشهى من الكأس الحابع قال ابو عمران بن سعيد ما سمعته الا تذكرت قول الرصافي :

ومطارح مما تجس بنانه   لحناً اغاض عليه ماء وقاره
يثني الحمام فلا يروح لوكره   طرباً ورزق نيه في منقاره

وكان محمد بن احمد بن ابي بكر الرقوطي المرسي من اعرف اهل الاندلس بالعلوم القديمة المنطق والهندسة والعدد والموسيقى والطب فيلسوفاً طبيباً ماهراً يقرئ الامم بالسنتهم فنونهم التي يرغبون فيها وفي تعلمها ولما تغلب الافرنج على مرسية عرف له حقه فبنى له مدرسة يقرئ فيها المسلمين والنصارى واليهود قاله في النفح .

وعلى الجملة لم تكن صناعة الموسيقى بالمنزلة التي يصورها اهل جيلنا من النضاضة والضعة بل عرف بها اناس من اهل الصيانة والعلم وما كان كل من تعاطى صناعة الغناء عارياً من سائر العلوم فقد كان اسحق بن ابراهيم الموصلي نديم الخلفاء وشيخ الغناء ومع هذا كان من العلماء باللغة والشعر واخبار الناس وله يد طولى في الحديث والفقه والكلام وكان المأمون يقول لولا ما سبق لاسحق على السنة الناس واشتهر بالغناء لوليته القضاء فانه اولى واعف واصدق واكثر ديناً وامانة من هؤلاء القضاة ولكنه اشتهر بالغناء وغلب على جميع علومه مع انه اصغرها عنده .

ومثل هذا ما وقع لقاضي اشبيلية ابي بكر بن القاضي ابي الحسن الزهري فانه